الفصل السادس عشر

الثورة هى الولايات المتحدة

إن عاجلا أو آجلا سوف يرد اسم ماكدونالدز فى كل قصة: أين كان أو جى سيمبسون يتناول طعامه قبل اغتيال نيكول؟ فى ماكدونالدز. ماذا قدم رون براون وزير التجارة للقوات الأمريكية قبل وفاته؟ ماكدونالدز.

ـ ما سبق جملة موجودة فى المكتب الصحفى فى المقر الرئيسى لشركة ماكدونالدز فى أوك بروك بولاية إلينوى.

إننى أومن بنظرية محطات البنزين الخمس للعالم.

هذا صحيح: إننى واثق من أنك تستطيع تلخيص أنواع الاقتصاد فى العالم اليوم فى مجرد خمس محطات بنزين مختلفة. أولاً، محطة البنزين اليابانية. سعر البنزين فيها 5 دولارات للجالون. ويوجد بها أربعة رجال يقومون على خدمتك فى زيهم الموحد وقفازاتهم البيضاء وعقود عمل مدى الحياة . إنهم يضخون البنزين فى سيارتك. ويغيرون زيت سيارتك. وينظفون زجاج سيارتك، ويلوحون لك بأيديهم فى ابتسامة ودودة وأنت ترحل بسيارتك فى سلام. والثانية محطة أمريكية. البنزين فيها لا يزيد سعره عن دولار واحد للجالون، ولكنك تضخه إلى سيارتك بنفسك. وتغسل زجاج سيارتك بنفسك. وتملأ إطارات سيارتك بالهواء بنفسك. ويحاول أربعة من المشردين

obeikandi.com

وأنت تدور حول الناصية سرقة غطاء الإطارات. والثالثة محطة بنزين أوروبية غربية. سعر البنزين هناك أيضاً 5 دولارات للجالون. ولا يوجد سوى شخص واحد يقدم الخدمة. فهو يضخ البنزين إلى سيارتك فى تذمر ويغير لك الزيت وهو متجهم، ويذكرك طوال الوقت بأن عقود اتحاد العمال المشترك فى عضويته تنص على ضخ البنزين وتغيير الزيت فقط. وهو لا يغسل نوافذ السيارة. ويعمل فقط اثنين وثلاثين ساعة فى الأسبوع، مع الحصول على راحة لمدة ساعة ونصف يومياً لتناول طعام الغداء، تغلق فى أثنائها محطة البنزين. وهو يحصل أيضاً على إجازة سنوية لمدة ستة أسابيع كل صيف يقضيها فى جنوب فرنسا. وهناك عبر الشارع، ترى أخاه وعمه يلعبان كرة البوتشى، وقد ظلا عاطلين طوال عشر سنوات لأن التأمين الذى تدفعه الدولة ضد البطالة يزيد على مرتب آخر وظيفة لهما. والرابعة محطة بنزين فى دولة نامية. تجد فيها خمسة عشر شخصاً يعملون وجميعهم أقرباء. وعندما تدخل بسيارتك إلى المحطة لا يلتفت إليك أحد لأنهم جميعاً منهمكون فى تبادل الأحاديث فيما بينهم. ولا يزيد سعر البنزين على 35 سنتاً لأن الحكومة تدعمه، ولكن لا تعمل فعلاً من المضخات الست الموجودة سوى مضخة واحدة. والمضخات الأخرى معطلة وهى فى انتظار وصول قطع الغيار من أوروبا. والمحطة فى حالة سيئة لأن مالكها يعيش فى زيوريخ ويخرج بأرباحها كلها إلى الخارج. ولا يعرف هذا المالك أن نصف العاملين فى المحطة ينامون فى الواقع فى ورش الإصلاح فى أثناء الليل ويستخدمون معدات غسيل السيارات فى الاستحمام. ومعظم زبائن محطة البنزين فى الدول النامية إما أنهم يركبون سيارات المرسيدس أو دراجات بخارية سكوتر. غير أن المكان يعج دائماً بالحركة، فالكثيرون من الناس يتوقفون لاستخدام مضخة الهواء لملء إطارات دراجاتهم. وأخيراً هناك محطة البنزين الشيوعية. والبنزين هناك سعره 50 سنتاً فقط للجالون ـ ولكن لا يوجد بنزين، لأن الرجال الأربعة الذين يعملون بالمحطة باعوه كله فى السوق السوداء بسعر 5

دولارات للجالون. ولا يوجد فى الواقع سوى واحد فقط من الرجال الأربعة العاملين فى محطة البنزين. أما الثلاثة الآخرون فيعملون فى وظيفة ثانية فى الاقتصاد السرى ولا يأتون إلى المحطة إلا مرة كل أسبوع لاستلام أجورهم.

وما يحدث فى العالم اليوم، بمعناه الواسع، هو أن الجميع مجبرون على التوجه إلى محطة البنزين الأمريكية عن طريق عملية العولمة. فإذا لم تكن أمريكياً ولا تعرف كيف تضخ بنفسك البنزين إلى سيارتك، فإننى أنصحك بأن تتعلمها. إذ إنه مع انتهاء الحرب الباردة، تعمد العولمة إلى نشر نموذج الرأسمالية الأنجلو أمريكية وقميص القيد الذهبى فى العالم. إنها تعولم الثقافة والمقدسات الثقافية الأمريكية. إنها تعولم الثورة الأمريكية وتعولم محطة البنزين الأمريكية.

والمؤسف، أن ما تمثله محطة البنزين الأمريكية لا يروق للجميع. أما محطات البنزين اليابانية والأوروبية الغربية والشيوعية فيكمن وراءها عقود عمل اشتراكية شديدة الاختلاف عن محطة البنزين الأمريكية ومواقف شديدة الاختلاف إزاء الطريقة التى يجب أن تعمل وتدار بها الأسواق. فالأوروبيون واليابانيون يؤمنون بسيطرة الدولة على الناس وعلى الأسواق، فى حين يميل الأمريكيون إلى الإيمان بوضع السلطة فى يد الأفراد والسماح قدر الإمكان بحرية السوق فى تصنيف من يفوز ومن يخسر. وبما أن اليابانيين والأوروبيين الغربيين والشيوعيين لا يشعرون بالارتياح تجاه الأسواق التى تحررت تماماً من القيود والمزايا والعقوبات غير المتكافئة التى يوزعونها، فقد صممت محطات البنزين لديهم لكى تخفف من حدة عدم التكافؤ هذا ولكى توزع الجوائز بالعدل. كذلك تعطى محطات بنزينهم اهتماماً أكبر للتقاليد المتميزة وتقدر قيمة الأشياء التى تفضلها مجتمعاتها. ويطبق الأوروبيون ذلك بتوظيف عدد أقل، ولكنهم يدفعون لهم أجوراً مرتفعة ويفرضون ضرائب مرتفعة لإعالة العاطلين بسخاء وضمان تقديم سلة وافرة من أطايب الإعانات الاجتماعية الأخرى التى تقدمها الدولة. ويطبقها

اليابانيون بأن يدفعوا للعاملين أجوراً أقل ولكنهم يضمنون لهم وظائفهم مدى الحياة، ثم يعملون على حماية هذه الوظائف والمزايا مدى الحياة بفرض قيود على دخول متنافسين أجانب إلى السوق اليابانية. أما محطة البنزين الأمريكية، فهى على العكس، مكانٌ أكثر كفاءة لكى تصل إلى الهدف: فالزبون ملك، وليس لمحطة البنزين وظيفة اجتماعية، وهدفها الوحيد أن توفر أكبر كمية من البنزين بأرخص الأسعار. فإذا أمكن ذلك بدون وجود العاملين على الإطلاق ـ حسناً، أهلاً ومرحباً. فسوف تجد سوق العمل الأكثر مرونة عملاً لهم فى مكان آخر. أتقول تلك قسوة بالغة؟ ربما كان ذلك صحيحاً. ولكن سواء كنت مستعداً لذلك أم غير مستعد، فهذا هو النموذج الذى يتزايد الطلب على محاكاته فى بقية العالم.

ويوجه اللوم كله إلى أمريكا فى ذلك لأن العولمة هى نحن فى كثير من الوجوه. ولكننا لسنا النمر. فالعولمة هى النمر. ولكننا الشعب الأكثر مهارة فى امتطاء النمر، ونحن الآن نقول للآخرين جميعاً، إما أن يركبوا معنا وإما أن يبتعدوا عن الطريق. والسبب فى أننا بهذه المهارة فى امتطاء هذا النمر هو أننا ربيناه منذ أن كان صغيراً. فقد ترعرعت الديموقراطيات الثلاث فى أمريكا فى المقام الأول. وكذلك صنع قميص القيد الذهبى فى أمريكا فى المقام الأول. وتقود ثيران بورصة وول ستريت الأمريكية القطيع الإلكترونى، والعم سام هو أكثر الوكلاء نفوذاً فى الضغط على الدول الأخرى لكى تفتح أسواقها أمام التجارة الحرة والاستثمار الحر. واللافتة التى نرفعها لشغل الوظائف تقول: **العم سام يريدك** (من أجل القطيع الإلكترونى).

ويأتى فى مقدمة هذا كله أن العولمة لها وجه أمريكى مميز: لها أذنا ميكى ماوس، وتأكل شطائر ماكدونالدز الكبيرة، وتشرب الكوكا والبيبسى، وتقوم بعملياتها الحسابية بجهاز كمبيوتر محمول من طراز آى بى إم أو آبل، وتستخدم ويندوز98، مع بروسسور من طراز إنتل بينتيوم II وشبكة اتصال من شركة سيسكو سيستيمز. ولذلك،

obeikandi.com

فإنه لئن كان الفرق بين ما هو عولمى وما هو أمركة واضح لمعظم الأمريكيين، إلا أنه ليس كذلك بالنسبة للكثيرين غيرهم فى أنحاء العالم. ففى معظم المجتمعات لم يعد باستطاعة الكثيرين من الناس التمييز بين القوة الأمريكية، والصادرات الأمريكية، والهجمات الثقافية الأمريكية، والصادرات الثقافية الأمريكية وبين النكهة الواضحة للعولمة. فكلها جميعاً ملفوفة فى ربطة واحدة.

حكى لى مارتين إندايك، السفير الأمريكى السابق فى إسرائيل، قصة تصور هذه النقطة بوضوح. فقد دُعى، باعتباره السفير الأمريكى، إلى افتتاح أول فرع لماكدونالدز فى القدس. ولما سألته عما صرح به فى مناسبة مثل افتتاح فرع ماكدونالدز فى المدينة المقدسة، أجاب قائلاً: «الطعام السريع من أجل الأمة السريعة». ولكن أفضل ما فى القصة، الذى حكاه لى فيما بعد، هو أن ماكدونالدز قدم له قبعة بيسبول زاهية الألوان وعليها شعار ماكدونالدز ليرتديها وهو مدعو لوجبة احتفالية بأول شطيرة بيج ماك الكبرى فى أول فرع يفتتحه ماكدونالدز فى القدس ـ ذلك مع تصوير التليفزيون الإسرائيلى لكل قضمة لإذاعتها فى نشرة أخبار المساء. وكان المطعم يكتظ بالشباب الإسرائيلى المتلهف على أن يشهد ذلك الحدث التاريخى. وحين كان السفير إندايك يستعد لتناول أول شطيرة بيج ماك رسمية فى القدس، شق أحد المراهقين الإسرائيليين طريقه بصعوبة وسط الزحام حتى وصل إليه. وكان هذا المراهق يحمل فى يده قبعة ماكدونالدز الخاصة به، وسلمها للسفير إندايك ومعها قلم، وسأله: «هل أنت السفير؟ هل أستطيع الحصول على توقيعك على هذه القبعة؟

ردّ السفير إندايك فى شىء من الخجل: «نعم بالتأكيد، لم يطلب أحد منى من قبل التوقيع على أوتوجرافه».

أخذ السفير القبعة واستعد للتوقيع باسمه عليها، عندما سأله المراهق، «واو، ما هو شعورك فى أن تكون سفيراً من ماكدونالدز تجوب أنحاء العالم تفتتح فيها فروعاً لماكدونالدز؟»

ذهل السفير إنديك نوعاً ما ونظر إلى الشاب الإسرائيلى، وقال، «لا، لا، أنا السفير الأمريكى ـ ولست السفير من ماكدونالدز!».

ونظر إليه الشاب الإسرائيلى وهو فى شدة الخجل. وقد وصف لى السفير إنديك ما حدث فيما بعد: «قلت له، 'هل يعنى ذلك أنك لا تريد توقيعى على القبعة؟' فرد الصبى قائلاً، لا، لا أريد توقيعك، وأخذ قبعته وسار بعيداً».

لا عجب إذن فى أن علاقة الحب والكره التى ظلت قائمة بين أمريكا وباقى العالم تبدو لى أنها أخذت شكلاً أكثر حدة هذه الأيام. فقد أصبحت الأمركة والعولمة بالنسبة للكثيرين من الناس طريقاً شديد الجاذبية، وعاملاً مساعداً ومغرياً بصورة مذهلة للارتفاع بمستوى المعيشة. ومع ذلك، فمن الممكن أن تفرز هذه الأمركة والعولمة، بالنسبة لآخرين كثيرين، شعوراً عميقاً بالحسد والاستياء تجاه الولايات المتحدة ـ الحسد لأن أمريكا تبدو أفضل كثيراً فى امتطاء هذا النمر، والاستياء لأن الأمركة والعولمة تعطى غالباً الشعور بأن الولايات المتحدة تجلد الجميع حتى يسرعوا فى سيرهم، وفى التحامهم بالشبكة، وحتى يخفضوا من الحجم، ويتقولبوا، ويسيروا على نغمات الثقافة الأمريكية نحو العالم السريع. وعلى الرغم من ثقتى بأن من يحبون أمريكا ما زالوا أكثر ممن يكرهونها، فإن هذا الفصل يدور حول هؤلاء الكارهين لها. إنه يدور حول أنواع الارتداد الأخرى ضد العولمة ـ حول استفحال الشعور بالاستياء تجاه الولايات المتحدة الذى انطلق مع تحركنا نحو نظام العولمة المتأثر بشدة فى هذه الأيام بالأذواق والأسواق والقوة العسكرية الأمريكية.

o b e i k a n d i . c o m

أشار ذات مرة المؤرخ رونالد ستيل فى هذا الصدد إلى أنه «لم يكن الاتحاد السوفيتى أبداً بل ولا الولايات المتحدة ذاتها، القوة الثورية الحقيقية. إننا نؤمن بأن مؤسساتنا هى التى يجب أن توقف الآخرين جميعاً عند حدودهم فى كومة رماد التاريخ. إننا نتبع نظاماً اقتصادياً استطاع بكفاءة أن يدفن كل الأشكال الأخرى للإنتاج والتوزيع ـ مخلفاً وراءه كثيراً من الثروة وأحياناً كثيراً من الخراب. وتنطلق الرسالة الثقافية التى نبعث بها عن طريق هوليوود وماكدونالدز إلى أنحاء العالم لكى تأسر مجتمعاته، ولكى تقوضها أيضاً. وإننا، على عكس غيرنا من قوى الاستعمار التقليدية، لا نقنع بمجرد إخضاع الآخرين: إننا نصر على أن يكونوا مثلنا. وذلك بالطبع لمصلحتهم الخاصة. إننا من أشد المبشرين تصميماً فى العالم. إذ يجب أن يكون العالم ديموقراطياً. ويجب أن يكون رأسمالياً. ويجب أن يكون مرتبطاً بالرسائل المدمرة لشبكة الاتصال العالمية. فلا غرابة إذن فى أن الكثيرين يشعرون بأنهم مهددون بما نمثله لهم».

إن الصورة الذاتية لأمريكا الكلاسيكية هى لوحة ***الأمريكى الفظ*** التى رسمها جرانت وود، وهى لزوجين متزمتين يمسكان بالمذراة فى أيديهما، ويسيطران على تعبيرات وجهيهما، ويقفان فى هدوء وتيقظ خارج الحظيرة. ولكن بالنسبة لبقية العالم، تمثل لوحة الأمريكى الفظ فى الواقع اثنين من مهندسى البرمجيات الأمريكيين فى العشرينيات من عمرهما يأتيان إلى بلادك يرتديان شعوراً طويلة وخرزات وصنادل، ويضعان قرطين فى أنفيهما وطلاءً فى أظافرهما. ويدفعان باب منزلك الأمامى، يقلبان كل شىء فى المنزل رأساً على عقب، ويضعان فى فمك شطيرة بيج ماك. ويملآن رؤوس أولادك بأفكار لم تكن لديك أبداً ولا يمكن أن تفهمها. ويوصلان بعنف علبة الكابل فى جهاز تليفزيونك، ويغلقان القنوات على قناة واحدة هى قناة الأفلام إم تى فى MTV، ويضعان قابس الإنترنت فى جهاز الكمبيوتر الخاص بك، ويقولان لك: «إما أن تحمله وإما أن تموت».

هذا هو نحن. نحن الأمريكيون رواد العالم السريع، وأعداء التقاليد، وأنبياء السوق الحرة، وكرادلة التكنولوجيا المتقدمة. نحن نريد «توسيع» قيمنا ومطاعم بيتزا هت الخاصة بنا. نحن نريد من العالم أن يحذو حذونا، فيصبحون ديمقراطيين، ورأسماليين، ولديهم موقع على الشبكة فى كل ركن، وزجاجة بيبسى على كل شفة، وبرمجيات مايكروسوفت ويندوز فى كل كمبيوتر، وأهم من هذا كله ـ أهم من هذا كله ـ أن يكون الجميع، وفى كل مكان، يضخون البنزين الخاص بهم.

لقد شاهدت تلك اللافتة فوق المدخل الرئيسى بمجرد دخولى إلى بهو فندق هوما فى وسط طهران فى سبتمبر عام 1996. كان مكتوباً عليها «تسقط الولايات المتحدة الأمريكية». لم تكن لافتة. ولم تكن كتابات على الجدران. ولكنها كانت منحوتة فى الحائط.

قلت فى نفسى «يا إلهى، منحوتة فى الحائط! إن هؤلاء الناس لديهم مشكلة حقيقية مع أمريكا».

بعد فترة قصيرة لاحظت أن الملالى الإيرانيين، الذين كانوا دائماً يشعرون بالحساسية تجاه تصاريف القوة الثقافية والعسكرية الأمريكية أكثر من غيرهم، أصبحوا يطلقون على الولايات المتحدة شيئاً آخر وهو «الشيطان الأكبر» ومعقل «الإمبريالية والصهيونية». لقد بدأ الإيرانيون يطلقون على أمريكا «عاصمة الغطرسة فى العالم». لقد لاحظت تغييراً طفيفاً ولكنه موحياً. لقد بدا لى أن القيادة الإيرانية تفهم أن هذه «الغطرسة العالمية» تختلف عن الإمبريالية. فالإمبريالية هى أن تحتل مادياً شعباً آخر وتجبره على الأخذ بأساليبك. أما الغطرسة العالمية فهى عندما تكون ضربتك الثقافية والاقتصادية من القوة والاتساع فى انتشار تأثيرها بحيث تعرف أنك لست بحاجة إلى احتلال شعب آخر لكى تؤثر فى حياته. قال لى ذات مرة شرى ياشوانت سينها وزير

المالية الهندى عن علاقات أمريكا ببقية العالم اليوم: «إنه لا يوجد توازن، لا توجد قوة مقابلة. إن كل ما تقولونه قانون».

وهذا هو ما يجعل اتحاد الأمركة مع العولمة اليوم بهذه القوة. وما يزعج الكثيرين من الناس من أمريكا اليوم ليس لأننا نرسل قواتنا إلى كل مكان، ولكن لأننا نرسل ثقافتنا، وقيمنا، واقتصادنا،.وتكنولوچياتنا، وأساليبنا فى الحياة إلى كل مكان ــ سواء كنا نحن نريد أو هم يريدون ذلك أم لا. قال جوزيف چوف الخبير الألمانى فى السياسة الخارجية فى مقال له نشر فى عدد سبتمبر 1997 من مجلة *فورين أفيرز*، «أمريكا مختلفة، فهى تثير الضيق وتفرض السيطرة ، ولكنها لا تحتل بالقوة العسكرية. إنها قد تحاول إعداد العُدة أو لى القوانين، ولكنها لا تذهب إلى الحرب من أجل الاستيلاء على الأرض أو تحقيق المجد... الولايات المتحدة لديها أكثر المؤسسات العسكرية تقدماً، ولكنها ليست أكبرها، فى العالم. ولكنها دون شك تحتل مرتبة خاصة بها فى لعبة قوة البرمجيات. ولا يستطيع الجالسون معها على مائدة اللعب ــ الصين وروسيا واليابان، بل وأوروبا الغربية ــ أن يأملوا فى مجاراة الولايات المتحدة فى العدد الهائل من شذرات الكمبيوتر التى تمتلكها. فالناس يخاطرون بحياتهم وسط الأمواج المتلاطمة حتى يصلوا إلى الولايات المتحدة، لا إلى الصين . ولا يوجد كثيرون من الناس ممن يرغبون فى الحصول على ماجستير فى إدارة الأعمال من جامعة موسكو، أو يرتدون ملابس اليابانيين أو يرقصون رقصاتهم. وللأسف إن عدداً أقل وأقل من الناس يرغبون فى تعلم اللغة الفرنسية أو الألمانية. لقد أصبحت الإنجليزية، بلكنتها الأمريكية، هى لغة العالم. هذه النوعية من القوة ــ تلك الثقافة التى تصل إشعاعاتها إلى الخارج والسوق التى تجذب إلى الداخل ــ تعتمد على الجذب وليس على الدفع، على القبول وليس على الإخضاع. والأسوأ أن هذه النوعية من القوة لا يمكن حساب مجموعها، ولا يمكن أيضاً وضع موازنة لها. ففى هذه الحلبة ــ لا يمكن لأوروبا واليابان والصين وروسيا ــ

أن تتجمع معاً ضد الولايات المتحدة مثلما كان يحدث فى تحالفات الأمس. ولا يمكن لكل استوديوهات السينما لديهم مجتمعة أن تكسر قبضة هوليوود على هذه الصناعة. ولا يمكن لاتحاد من جامعاتهم أن ينزل جامعة هارڤارد عن عرشها... ولهذا السبب تبدو 'الشراكة الاستراتيچية' التى توصلت إليها روسيا والصين فى عام 1997 وكأنها تحدث فى غير زمانها. ما الذى تستطيعان أن تفعلاه إزاء أمريكا؟ فلن يرغب بوريس يلتسين فى تسوق المعرفة وأجهزة الكمبيوتر فى بيجنج (بكين). ولن ترغب الصين فى المخاطرة بأهم سوق للتصدير بالنسبة لها».

فلا عجب إذن فى أن يتبين لى، وأنا أجوب العالم فى أواخر التسعينيات، أنه لم يكن الإيرانيون وحدهم الذين يطلقون على أمريكا اسم «عاصمة الغطرسة فى العالم»، وإنما أيضاً يقولها من وراء ظهورنا الفرنسيون والماليزيون والروس والكنديون والصينيون والهنود والباكستانيون والمصريون واليابانيون والمكسيكيون والكوريون الجنوبيون والألمان ـ بل الجميع تقريباً. لقد حاول الرئيس العراقى صدام حسين الذى يشعر دائماً، مثل الإيرانيين، بأدق التغييرات فى الوضع الدولى لأمريكا أن يلعب بدهاء على هذا الاستياء الذى ظهر مؤخراً، بأن يعدّل من الخط الذى تسير عليه دعايته. فقد رسم صدام لنفسه فى أزمة حرب الخليج الأولى فى أوائل التسعينيات صورة روبين هود الذى جاء ليسرق العرب الأغنياء لكى يعطى للعرب الفقراء. وفى حرب الخليج الثانية فى أواخر التسعينيات، رسم صدام لنفسه صورة لوك والكر الذى يسير فوق السحاب، ويتصدى لإمبراطورية الشر الأمريكية. ففى كل مرة يظهر فيها وزير خارجية صدام فى لقاء تليفزيونى كان يشكو من أن تصرفات أمريكا كانت تشبه «الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية». لقد أصبح ذلك هو خط الدعاية الجديد للعراق، بداية من أعلى منصب فى نظام الحكم إلى أدنى عابر فى الشارع. لقد كنت أشاهد شبكة سى إن إن ذات مرة وسمعتهم يجرون لقاء مع «رجل فى أحد شوارع بغداد»، وسمعته يشير إلى أمريكا بأنها «دراكولا الدولى الذى يمتص دماء الشعوب حول العالم».

لا بأس، لا بأس، إذن فبقية العالم ترى فينا ثيراناً بغيضة ويحسدوننا. وماذا بعد؟ فما هو تأثير ذلك حقيقة على العلاقات بين الولايات المتحدة والحكومات الأخرى؟ الإجابة المختصرة هى أن ذلك يجعل علاقة أمريكا بكل دولة من دول العالم أكثر تعقيداً اليوم إلى حد ما. فبعض الدول تخرج عن مسارها الآن لمجرد قرص أمريكا فى أنفها، ودول أخرى تجلس هادئة ومستمتعة بدور المتفرج ـ وتسمح لأمريكا بأن تلعب دور رجل الشرطة فى العالم، وأن تدفع كل تكاليف مواجهة صدام حسين وغيره من المارقين، وتستمتع بالمزايا فى حين تشكو طوال الوقت من أمريكا، ودول أخرى تشعر بالتذمر والاهتياج إزاء السيطرة الأمريكية، ودول أخرى لا تفعل سوى أن تنصاع فى هدوء للخط الأمريكى.

فى الواقع تشبه علاقة أمريكا اليوم ببقية العالم إلى حد بعيد ما كانت عليه علاقة مايكل جوردان ـ فى ذروة نجاحه ـ ببقية أعضاء الاتحاد القومى لكرة السلة. لقد كان كل لاعب وفريق آخر يتوق إلى هزيمة مايكل جوردان، وكل لاعب وفريق آخر يكره الطريقة التى كان يكشف بها عن كل نقاط ضعفهم، وكل لاعب وفريق آخر يقارن نفسه بمايكل جوردان، ومن ثم يقتدون به فى تحركاتهم إلى حد ما، وكل لاعب وفريق آخر يشكو من أن الحكام كانوا يتركون مايكل جوردان يفلت بكل أنواع الأخطاء التى لا يستطيع أى لاعب آخر الإفلات بها. ولكن على الرغم من كل ذلك لم يكن أى فريق آخر يريد حقاً أن يرى مايكل جوردان مصاباً أو معتزلاً، لأنه فى كل مرة يذهب فيها إلى أى مدينة، كانت كل التذاكر تباع. لقد كان هو الذى يبعث الحركة فيهم جميعاً.

تأمل بضعة أمثلة لهذه الظاهرة: عندما كان أنتونى تشوبايس، وهو أحد المهندسين الأصليين لبرنامج الخصخصة فى روسيا، يتفاوض بشأن برنامج آخر لصندوق النقد الدولى لإنقاذ روسيا فى صيف عام 1998، كان الصندوق يطالب بتنفيذ شروط

أكثر تشدداً من أى وقت مضى، ولم يكن أمام تشوبايس إلا الاستسلام لهذه الشروط. وفى ذروة المفاوضات، قدم برنامج الاستعراضات التليفزيونى الروسى، **كوكلى** ***Kukli*** الذى يصور عرائس ترتدى ملابس القادة الروس، عرضاً مقتبساً عن قصة «ذات الرداء الأحمر». كان بوريس يلتسين هو الجدة وكان رئيس الوزراء كيرينكو هو ذات الرداء الأحمر التى تحاول الوصول إلى يلتسين قبل الآخرين حتى تؤثر فى آخر خطة لإنقاذ روسيا. غير أنه عندما وصل كيرينكو إلى منزل الجدة، وجد تشوبايس جالساً بالفعل إلى جوار يلتسين. وكان تشوبايس يرتدى بذلة الفضاء وخوذة الهبوط على القمر. وفى واجهة البذلة كتبت الحروف «IMF» (معناها صندوق النقد الدولى) وعلم أمريكى. وكان تشوبايس يصور حرفياً على أنه عميل قادم من كوكب أمريكا، لكى يملى على الروس ما يجب عليهم عمله. وعندما رآه كيرينكو جالساً إلى جوار يلتسين، قال للمشاهدين، «يبدو أننى تأخرت كثيراً فى الوصول».

فى منتدى دافوس للاقتصاد العالمى لعام 1999، كان مينورو موروفوشى، رئيس شركة ايتوشو العملاقة اليابانية، عضواً فى لجنة مع رئيس الوزراء الروسى يفجينى بريماكوف. وكان موروفوشى يعلق على جهود بريماكوف للتفاوض من أجل إنهاء الأزمة الاقتصادية الروسية، عندما قال رجل الأعمال اليابانى فى زلة لسان فرويدية، «أعلم أن السيد بريماكوف سوف يلتقى غداً مع مستر فيشر من IBM ـ أعنى من صندوق النقد الدولى». حسناً IMF,IBM ما الفرق ـ كلاهما يسيطر عليه الأمريكيون!

تعتبر يوان مينج، أستاذة العلاقات الدولية بجامعة بيجنج (بكين)، واحدة من أبرز المتخصصين الصينيين فى الشئون الأمريكية. حكت لى ذات مرة قصة تشير إلى أن الصين ترى أن الطريقة الوحيدة التى ترد بها على الغطرسة العالمية لأمريكا هو أن تبدى هى أيضاً بعض الغطرسة، فقالت: «إن قادتنا السياسيين لا يستخدمون فى خطبهم

العامة كلمة 'العولمة globalization'. إنهم يستخدمون مصطلح التحديث 'modernization'. ويوجد سبب ثقافى لذلك. فالدرس التاريخى ما زال ماثلاً فى أذهان الشعب الصينى بأن الصين أجبرت على الانخراط فى المجتمع الدولى فى القرن الماضى بقوة السلاح ـ ومن ثم فالعولمة تمثل شيئاً لا تسعى إليه الصين بل يفرضه الغرب أو أمريكا عليها. أما التحديث فإنه، من الناحية الأخرى، شىء نستطيع السيطرة عليه. هناك برنامج استعراض تليفزيونى يذاع سنوياً بمناسبة العام الجديد على القناة الرئيسية. ويعتبر هذا البرنامج من أكبر الأحداث التليفزيونية السنوية فى الصين. ويشاهده نحو مليار شخص. وغالباً يقتصر على المطربين ونجوم الكوميديا. غير أنه قبل ثلاث سنوات [فى عام 1995]، عرض البرنامج اسكتشاً يمثل أبوين فى منطقة ريفية يتصلان هاتفياً بابنهما الذى يدرس فى الولايات المتحدة، يسألانه: 'كيف حالك فى يوم رأس السنة هذا؟' يقول إنه بخير وأنه يعتزم العودة إلى الوطن بعد الانتهاء من رسالة الدكتوراه فى الولايات المتحدة. يفرح الأبوان لسماع ذلك، غير أن الجملة التى ما زالت عالقة فى ذهنى هى عندما يبلغ الأبوان ابنهما أن الحياة فى الصين أصبحت طيبة فى كثير من الوجوه مثل أمريكا. إذ يقولان: 'لقد كنت تقوم ببعض أعمال غسيل الأطباق فى أمريكا. والآن لدينا بعض الأمريكيين يغسلون لنا الأطباق'».

كنت فى طريق عودتى من اليابان إلى الوطن بالطائرة يوم 14 ديسمبر 1997، وكنت أقرأ باب رسائل إلى المحرر فى صحيفة ***چابان تايمز*** لذلك اليوم. فأنا أحب دائماً قراءة هذا الباب فى أى بلد أكون فيه، لأننى أجد فى تلك الرسائل بعض المفارقات المثيرة للاهتمام. كانت تلك الرسالة بعنوان «الصلف الأمريكى». وكانت تتحدث نيابة عن عدد كبير من الناس. وجاءت سطورها على النحو التالى: «مرة أخرى لا تسعفنى الكلمات لوصف استمرار الولايات المتحدة فى تكتيكاتها المتنمرة. فى هذه المرة قرأت أن الولايات المتحدة ترفض التوقيع على أى اتفاقية[فى مؤتمر كيوتو حول التغيرات

المناخيـة] مـا لم تنفـذ ثلاثة مطالب من 'مطالبـهـا' ... إننى لا أقلل قط من تاريخ الولايات المتحدة فى 'المساعدة'، أينما طلب إليها ذلك ـ ولكن 'أعظم دولة فى العالم' (هكذا تزعم الرسالة ولست أنا) يجب أن تتعلم التواضع. فعودتها مؤخراً إلى المجد تعزى بالقدر نفسه إلى إخفاق النظم السياسية والاقتصادية لمنافسيها. إن الغرور يسبق السقوط. ويجدر بحكومة الولايات المتحدة أن لا تنسى ذلك» التوقيع: أندرو أوج. طوكيو.

لقد زرت الهند فى أعقاب تجاربها النووية 1998، وصرح لى الجنرال (المتقاعد) ڤى. آر راغاڤان، الرئيس السابق للعمليات فى الجيش الهندى، والآن يعمل محللاً لمجموعة دلهى بوليسى Delhi Policy Group، أنه عائد تواً من المشاركة فى ندوة حول القضية النووية. وكان من بين المشاركين فيها خبراء بريطانيون وأمريكيون وصينيون وهنود وغيرهم. قال الجنرال راغاڤان: «فى أثناء إحدى الاستراحات ذهبنا فى جولة فى قرية هندية صغيرة لمشاهدة حوانيتها وبيوتها وروث الأبقار الذى يستخدمونه مصدراً للطاقة. وكان أكثر ما أثار افتتانهم تلك الزيارة التى قمنا بها إلى مدرسة إعدادية فى القرية. كان بها نحو ثلاثين تلميذاً فى مطلع سن المراهقة، وبعض المدرسين، وأراد بعض أعضاء مجموعتنا التحدث إليهم. ومن ثم فقد جهزوا لهم بعض المقاعد الخشبية وجلسوا لتبادل الحديث. وكان من بين أعضاء المجموعة محام من نيويورك سأل الصغار عن رأيهم فى الصين والولايات المتحدة. ردّ هؤلاء الصغار بدون تردد بأن الصين هى أكبر جيراننا، وكانت هناك حرب بيننا وبين الصين، ولكن الصين تقف إلى جانب الدول الأضعف وليست لنا مشاكل مع الصين. سألهم: 'وماذا عن الولايات المتحدة؟' فقالوا إن الولايات المتحدة 'فتوة يتحكم فى الكل ولا يفكر إلا فى نفسه'. ولم يكن أعضا ء المجموعة يصدقون ما يسمعون».

فى عام 1997، حضرت مؤتمراً أكاديمياً فى المغرب تحت عنوان «العولمة والعالم العربى». وكانت ثقافة معظم المشاركين العرب فرنسية من شمال أفريقيا وفرنسا (فإن

تكن مفكراً عربياً وثقافتك فرنسية فتلك أسوأ توليفة ممكنة لفهم العولمة. إنها أشبه بالإعاقة المزدوجة، لأن كلتا الثقافتين تعاديان بالسليقة تلك الظاهرة برمتها). وقد طُلب إليّ إلقاء كلمة مختصرة أقدم بها نبذة عن العولمة، وهو ما قمت به. وعندما انتهيت من كلمتي، طُلب إلى أحد رؤساء الوزراء الجزائريين السابقين الذى كان يعيش فى المنفى ويشارك فى المؤتمر الرد على ما قلته من ملاحظات.فتحدث بالفرنسية، منددأ بكل ما قلته. وقال «إن هذه العولمة التى تتحدث عنها هى مجرد مؤامرة أمريكية أخرى للحيلولة دون العرب والتقدم، مثل الصهيونية والاستعمار».

استمعت فى أدب إلى ملاحظاته، التى سارت على هذا المنوال بإسهاب، ثم قررت أن أرد عليه فى صورة تعمدت أن تكون مستفزة، آملاً أن أخترق طريقى إلى عقله المتصلب. قلت ما معناه (مع التخفيف مما تفوهت به من تجريح): «سيدى رئيس الوزراء، لقد تحدثت عن العولمة باعتبارها مجرد مؤامرة أمريكية أخرى للحيلولة دون تقدمكم. حسناً، دعنى أقول لك شيئاً ـ إن الأمر أسوأ كثيراً مما تظن، أسوأ كثيراً. أتعرف، إنك تظن أننا نجلس هناك فى واشنطن ولا نفكر إلا فيكم وفى التآمر على كيفية الحيلولة دون تقدمكم، وليس لنا من شغل شاغل سوى ذلك. كم كنت أود ذلك. يا إلهى، كم كنت أود ذلك. لأننى أحبكم وشغلى الشاغل أن أرفع من شأنكم. ولكن الحقيقة هى، ***أننا لا نفكر فيكم مطلقاً!*** ولا لثانية واحدة. إننا لا نعيركم أدنى اهتمام. وليس ذلك لأننا نتعمد الأذى. ولكن لأننا نتعرض للضغوط التى تتعرضون لها، ونحن نحاول أن نسبق فى مضمار المنافسة بخطوة واحدة مثلما تفعلون أنتم أيضاً، ونشعر بالقلق لما سيكون عليه سوق السندات غداً، مثلما تشعرون أنتم أيضاً بالقلق. لذلك فكم كنت أود أن أوافقك على وجود مؤامرة للحيلولة دون تقدمكم، ولكننى لا أستطيع ... والآن إذا كنت ترغب فى بناء جسر إسلامى لهذا القطار العولمى فابن لك جسراً إسلامياً. وإذا كنت تريد بناء جسر ماوى لهذا القطار فابن لك

جسراً ماوياً. وإذا كنت تريد بناء جسر چيفرسونى لهذا القطار فابن جسراً چيفرسونياً. ولكن عدنى بشيء واحد: أنك سوف تبنى هذا الجسر. لأن هذا القطار سوف يرحل بدونك».

ولكن مقابل كل إنسان شمال إفريقى يقابل الأمركة والعولمة بمجرد التلويح بقبضته لها، هناك ببساطة آخر يتواءم معها ويحاول الاستفادة من أفضل ما فيها. فى أثناء زيارتى للدار البيضاء فى عام 1997، توقفت فرقاطة الصواريخ الموجهة يو إس إس كار فى الميناء فى زيارة له. وأقامت القنصلية الأمريكية فى الدار البيضاء حفل استقبال دعت إليه المسئولين المحليين والضيوف على متن الفرقاطة كار ودعتنى للحضور. وحين كانت الفتيات المغربيات يتزاحمن لالتقاط صور مع البحارة الأمريكيين بزيهم البحرى والضيوف يتناولون الغداء من الدجاج والشراب، انشغلت بالحديث مع محافظ الدار البيضاء. وشرح لى المسئول المغربى، الذى كان يرتدى ملابس رياضية بفخر، بلغة فرنسية سليمة الأسباب التى جعلته يرسل ولديه إلى المدرسة الأمريكية فى الدار البيضاء وليس إلى المدارس الفرنسية التى تلقى هو تعليمه فيها.

قال الرجل: «هناك سببان. الأول هو أنه فى ذلك العالم الذى نحن نسير إليه، إذا لم تكن تتكلم الإنجليزية فأنت أمىّ. والثانى هو أن النظام الفرنسى يعلمك كيف تكون إدارياً. أما النظام الأمريكى فإنه يعلمك كيف تستمر فى الحياة معتمداً على نفسك. وهذا هو ما أردت لأولادى أن يتعلموه».

على الرغم من أن الثقافة والتعليم الفرنسى أصبح جزءاً لا يتجزأ من كل مدينة مغربية كبرى منذ عام 1912، فإنه يوجد الآن ثلاث مدارس أمريكية هناك، وعليها إقبال كبير لدرجة أنه يوجد فى كل منها قوائم انتظار لقائمة الانتظار. والواقع، أنه أصبح هناك الآن تنافس ثقافى بين أمريكا وفرنسا على قلوب وعقول الجيل الجديد فى منطقة شمال وغرب إفريقيا المرتبطة تاريخياً بالثقافة الفرنسية، وهو تنافس تكسبه أمريكا

books4arab.com

باطراد ـ حتى بدون سعى من جانبها. الأمر كله يخضع للطلب. وتُعلّق دومينيك مويزى التى اعتادت التدريس فى المدرسة الوطنية للإدارة أو كلية ENA الفرنسية المجددة، والتى تعتبر من الخبراء البارزين فى الشئون الدولية، على ذلك بقولها: «إن التعليم العالى الفرنسى لم يتكيف بعد لهذه الفترة الثورية. فالنظام الفرنسى يكافئ الناس على قدرتهم على السير فى الطريق المفتوح أمامهم. ولكنه لا يشجع الناس على التمرد أو تنمية شخصياتهم. وأصبح المزاج السائد هو أنه إذا كانت الأمور تتغير الآن ونحن فى التسعينيات، فلا يد لفرنسا فى ذلك. لقد أصبحت أمريكا مرآة تعكس شكوكنا. إننا ننظر إليكم ونرى فيكم الأشياء التى نفتقر إليها».

وهناك رد فعل عام آخر للأمركة والعولمة اليوم وهو اتجاه بعض الدول إلى الشكوى بمرارة من أن أمريكا تلقى بثقلها هنا وهناك، فى حين تجلس هى فى سلام لتحصد ثمار القوة الأمريكية. سوف يقول لك اليابانيون سراً إننا «على حق تماماً» فى مطالبة الصين بالالتزام بالقوانين الدولية للملكية الفكرية. وسيقولون لك إن الشركات اليابانية، مثل سونى ونينتندو، تتكبد خسائر هائلة من القراصنة الصينيين تماماً مثلما يحدث لشركات أمريكية مثل ديزنى ومايكروسوفت. غير أن اليابان لن تناطح بيجنج (بكين) فى هذا الشأن. إنها سوف تترك لواشنطن، القوة الوحيدة فى العالم، هذه المهمة فى حين تمسك اليابان بطرف معطف أمريكا وتستمر فى إبرام الصفقات مع الصين بكل طاقتها ـ بل وتستغل ما تفقده أسواق الولايات المتحدة فى مواجهتها مع بيجنج (بكين). وبنهاية اليوم، إذا نجح الأمريكيون فى الحصول على تنازلات من الصين بشأن حقوق الملكية الفكرية فسوف تستفيد اليابان من ذلك أيضاً. كيف تقول «الفارس الحر» باليابانية؟

وأخيراً، هناك اتجاه من بعض الدول للبحث عن الفرص التى من شأنها تعقيد الدبلوماسية الأمريكية والتصدى للقوة الأمريكية، وذلك لأسباب جغرافية سياسية من جهة ولمجرد الشعور بالارتياح من جهة أخرى. لنأخذ روسيا أو فرنسا، على سبيل المثال:

كلما تعذر عليهما تحقيق الشرف والكرامة فى العالم السريع، زادت محاولتهما لتحقيقهما فى أماكن خاطئة بدلاً من ذلك ـ وذلك بتحدى الدبلوماسية الأمريكية فى البوسنة أو كوسوفو أو الأمم المتحدة أو العراق. والواقع أنه كلما ازدادت روسيا ضعفاً، زاد الإغراء لديها لتضخيم حتى اختلافاتها الصغيرة مع الولايات المتحدة، وزادت محاولة الروس لوضع أصبعهم فى عين أمريكا حتى يشعرهم ذلك بالارتياح ـ الشعور بأنهم ما زالوا أنداداً للولايات المتحدة بصورة ما.

قال لى ذات مرة، أليكسى بوشكوف المعلق السياسى الروسى فى هذا الصدد: «إن الموقف السائد هنا هو أنه يجب على روسيا أن تصبح قوة توازن تصحح بها المواقف التى تشعر فيها أمريكا بالزهو بقوتها». ولكننى قد أقولها بشكل مختلف قليلاً. فالشعار غير المعلن عند روسيا وغيرها هو: « إذا أصبح من المتعذر أن تكون فى موقف جيد فى الحرب التى قد تشنها حتى تصرف الانتباه عن مشاكلك الداخلية، فعليك على الأقل أن تكون فى موقف جيد من الجدل مع الأمريكيين».

وإن تكن أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم ، فذلك لا يضمن لها أن تجد طريقاً لها فى كل مكان من العالم، ولكنه يضمن لها أن تتعرض للانتقادات فى كل مكان من العالم. مرة أخرى. نعود لنتأمل مثال الاتحاد القومى لكرة السلة. يعتبر جارى بيتون هو النجم الوحيد لحراسة المرمى لنادى سياتل سوبرسونيكس. وهو لاعب عظيم، ولكنه ليس مايكل جوردان وهو يعوض بعض النقص فى مهاراته بأن يوجه السباب إلى خصومه، ولاسيما مايكل جوردان قبل اعتزاله. وأنا أرى أن فرنسا وروسيا اليوم مثل جارى بيتون ـ فهما أكبر دولتين توجهان السباب فى العالم، وتحاولان دائماً تعويض ضعفهما بأن توجها الكثير من السباب لكل الناس، ولا سيما لواشنطن.

فى الفيلم الكلاسيكى لاخوان ماركس، **حساء الأوزة** *Duck Soup*، مشهد يتحدث فيه تشيكو وهاربو إلى رجل الدولة الأوروبى ترينتينو، الشرير الماكر، والمنافس السياسى

لجروتشو، الذي استأجر تشيكو وهاربو للتجسس من أجله. وعندما يصل تشيكو وهاربو إلى مكتب ترينتينو ليقدما تقريراً له عما حققاه من تقدم فيما يقومان به من تجسس تدخل سكرتيرته إلى الحجرة ومعها برقية. يخطف هاربو البرقية من يدها، ويفحصها بدقة ثم يمزقها إلى قطع صغيرة، ويرمي بها على الأرض ويهز رأسه. وعندما يلتفت ترينتيون إلى تشيكو، وقد أخذته الدهشة والمفاجأة، ويرمقه بنظرة متسائلة كمن يقول: لماذا فعل ذلك؟ يجيب تشيكو قائلاً: إنه يفقد عقله لأنه لا يستطيع القراءة.

يذكرني هذا المشهد باتجاه آخر لردود الأفعال إزاء الأمركة والعولمة - وهو رد الفعل الخطير فعلاً. إنه رد فعل أولئك الذين لا يسعهم الوصول إلى الأمركة والعولمة أو لا يريدون الوصول إليها لأسباب حضارية أو اقتصادية أو سياسية، ويريدون تمزيقها إبراً كلما قفزت أمام وجوههم. أولئك على شاكلة هاربو - رجال ونساء غاضبون لا يريدونها لأي من السببين، على عكس قادتهم. إنهم فقط لا يريدون الانحناء أمام أمريكا ثم انتقادها من وراء ظهرها. إنهم يريدون أن تسير الأمور بطريقة واحدة، الطريقة القديمة، طريقتهم هم.

صوّرها لي ذات مرة رونالد ستيل بما معناه أن الرجال الغاضبين يرون في الأمركة والعولمة ضيفاً غير مرغوب فيه: تحاول أنت إغلاق الباب فيأتي إليك من النافذة. وتحاول إغلاق النافذة فيأتي إليك عن طريق الكابل. وعندما تقطع الكابل يأتيك على الإنترنت عن طريق الخط التليفوني. وعندما تقطع خط التليفون يأتي إليك عن طريق الأقمار الصناعية. وعندما تلقي التليفون الخلوي بعيداً فإنك تجده هناك على لوحة الإعلانات. وعندما تهدم لوحة الإعلانات، يأتي إليك عن طريق مكان العمل أو أرضية المصنع. وهي ليست معك فقط داخل الحجرة، تلك الأمركة والعولمة. إنك تأكلها. إنها تتسلل إلى داخلك. وعندما تأتي إليك فهي غالباً تقيم

هوة هائلة بين الآباء والأبناء، الأمهات وبناتهن، الأجداد وأحفادهم. إنها تخلق موقفاً يرى فيه أحد الأجيال العالم بصورة تختلف اختلافاً جذرياً عن آبائهم، وكل ذلك بفعل أمريكا.

رئيس الوزراء الهندي السابق آي. كي. جوجوال كان لي حديث معه ذات مرة في نيودلهي عبر فيه عن حزنه لما يشعر به بعض الناس إزاء الطريقة التي تتغلغل بها الأمركة والعولمة إلى داخل عائلاتهم وبيوتهم، فقال: أرى ذلك الشيء نفسه يحدث الآن في الهند - التغييرات التي تحدث في ملابسنا، وعاداتنا في الأكل. إن حفيدتي في الرابعة من عمرها. إنها تتكلم دائماً عن علكة الفقاقيع، وليس عن الغذاء الهندي، أو تقول: لا أحب البيبسي أحب الكوكا. بل إنها تتحدث اللغة الإنجليزية أكثر مما تتحدث الهندية. سألتها ذات يوم لماذا لا تتكلم معي بالهندية، حينئذ ذهبت إلى أمها وسألتها: ألا يتكلم جدي الإنجليزية؟ إنني أواصل مراقبة أحفادي لأن ذلك يعطيني مؤشراً. قالت حفيدتي منذ يومين: إنها تريد بيتزا. فقالت لها أمها إنها ستصنع لها بيتزا في اليوم التالي. قالت حفيدتي: لا لا أريد بيتزا هت.

في شنغهاي، أجريت مقابلة صحفية مع وانج جوليانج، أحد كبار المسؤولين في بنك الاتصالات، وهو أحد البنوك الصينية الأربعة الكبرى المملوكة للدولة، سألته من قبيل المداعبة عن المصدر الذي يحصل منه على أخبار العالم. فقال: إن سكرتيرته تعد له كل صباح ملخصاً من الإنترنت ووكالة أنباء رويترز، ولكنه يحصل أيضاً على كثير من الأخبار من ابنه.

بعدها، وعلى حين فجأة، شرع في إلقاء محاضرة عن الآباء والأبناء انحرفت لتصبح خطبة مسهبة ضد الإنترنت.

قال المصرفى الصينى: «إن ابنى خبير فى الإنترنت. وفى أى وقت يقع على شيء مثير للاهتمام على الإنترنت يريه لى. ولكن يجب أن لا يكون الأبناء هم الذين يوجهون الآباء، ابنى يقترح علىّ أيضاً أشياء، ولكننى لا أحب معظم ما يعرضه علىّ من مقترحات. فالأب يجب أن لا يستمع إلى الابن. إن ذلك يعرض سلطة الأب للخطر. لقد قلت لابنى أن يقلل من قراءاته للإنترنت وأن يُكثر من استذكار دروسه».

يعتبر آى كى جوچرال وواغ جولياغ على درجة رفيعة من الثقافة والتطور الفكرى بحيث لا يكون رد فعلهما عنيفاً إزاء ذلك، ولكن رد فعل الرجال الغاضبين الآخرين ليس كذلك. فليست لدى هؤلاء الرجال الغاضبين أيديولوچية بديلة شاملة للأمركة والعولمة. إنهم مثل هاريو. إنهم يفضلون فقط أن يمزقوا الرسالة ويطأوها بأقدامهم. وهم على عكس حكوماتهم المتخاذلة التى تشتكى من العم سام ولكنها تسير على دربه، فالرجال الغاضبون على استعداد لتخطى الحدود وجذب الزناد.

الآن وصلنا إلى ما هو مخيف حقاً. فلا تعطى الأمركة والعولمة لهؤلاء الرجال الغاضبين حافزاً أكبر لكره أمريكا فحسب، إنها تمنحهم أيضاً قوة أعظم، كأفراد، لجذب هذا الزناد. فالعولمة تمنحهم قوة عظمى بطريقتين مهمتين:

الأولى لقد أصبح بوسع الإرهابيين الآن إشعال غضب الكثيرين من الناس فى التو واللحظة، بعد أن أصبح العالم متصلاً على هذا النحو، وبعد أن أصبحنا جميعاً على اتصال أكبر بكثير من الأماكن وفى كثير من الأوقات. تأمل ما حدث معى فى إحدى إجازاتى فى ديسمبر عام 1998 : كنت أقوم برحلة تزلج على الجليد فى جبال روكى ولاحظت للمرة الأولى أنه فى كل مصاعد التزلج التى كنت أصعد بها إلى الجبل تقريباً كان هناك شخص ما يتكلم إلى شخص آخر بالتليفون الخلوى. وكان هناك صديق لى يتزلج وهو يحمل جهاز استدعاء يعطيه باستمرار آخر المعلومات عن

معدلات مؤشر داو جونز الصناعى ووضع محفظة أسهمه فى السوق. وكان يراجعه فيما بين الانزلاقات التى يقوم بها على الجبل. وحينما كنت أرسل عدة فصول من هذا الكتاب عن طريق مكتب الأقمار الصناعية لفيدرال إكسبريس، لتسليمها عبر مسافة تصل إلى نصف البلاد فى الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالى، قابلت صدفة ديفيد ستيرن مفوض الاتحاد القومى لكرة السلة يسير فى الطريق وهو يضع تليفوناً خلوياً على أذنه يتفاوض من خلاله لإنهاء أزمة يواجهها الاتحاد القومى لكرة السلة. وفى نهاية كل يوم من أيام التزلج، كنت أذهب إلى المنزل لمراجعة واحدة من الأربعين قناة تليفزيونية المذاعة على الكابل المحلى، وأجرى اتصالات هاتفية مع أصدقائى فى مصر والقدس باستخدام بطاقتى الائتمانية لشركة الاتصالات إيه تى أند تى أو باستخدام رقم AOL 800 (أمريكا أون لاين 800) الخاص بى لمراجعة الأخبار على وكالات الأنباء أو البريد الإلكترونى الذى قد يكون قد وصلنى. وبعد العشاء فى إحدى ليالى رأس السنة، ذهبت لاستلام معطفى فى المطعم الذى اعتدت الذهاب إليه وسمعت الحوار التالى عند مكتب الاستعلامات بين أحد الزبائن الغاضبين ومسئول الاستعلامات: «ماذا تعنى بقولك إنك لم تتلق حجزى؟ لقد أرسلته إليك بالبريد الإلكترونى منذ عدة أسابيع! الاسم أشرف، أش راف» وقبل ذهابى إلى النوم التقطت نسخة من صحيفة *يو إس إيه توداى* وكان عليها الصورة التى وضعتها فى الفصل الثانى وتبين أحد الحاخامات اليهود وهو يلصق التليفون الخلوى بأحجار حائط المبكى حتى يستطيع أحد الأقارب فى فرنسا قراءة صلواته فى الأرض المقدسة.

كل ذلك حدث أثناء إجازة كنت أقضيها فى الجبال!

وما عليك إلا أن تتخيل ما يمكن أن يحدث و أنت فى منزلك أو فى مكتبك. لقد أصبحنا فى حالة اتصال شديد اليوم. إننا نعرف، أو نستطيع أن نعرف، فى التو واللحظة كل ما يحدث. وفى مثل هذا العالم، لا يحتاج الأمر إلا إلى كمية أقل كثيراً

من الديناميت أو الأسلحة الجرثومية أو اليوارنيوم شديد التخصيب لإشاعة القلق والذعر بين المليارات من الناس فى وقت واحد.

وأيضاً تمنح العولمة الإرهابيين نشاطاً أكبر مقابل ما يدفعونه من أموال بطريقة أخرى. ذلك أنه عندما تجعل شذرات الكمبيوتر الدقيقة وعمليات النمنمة الأشياء أصغر حجماً وأخف وزناً يصبح كل شىء أصغر وأخف. لقد لاحظ سام كوهين مخترع قنبلة النيوترون فى حديث نشرته له صحيفة ***واشنطن تايمز*** (7يونيه 1998)، أنه فى غضون عشر سنوات بعد أول تجربة لانشطار البلوتونيوم فى ألاموجوردو تمكن المصممون الأمريكيون من خفض وزن الرأس الحربى الذى يعطى حجم الانفجار نفسه ـ أى 20 كيلو طن ـ بنحو مائة مرة تقريباً. كذلك طورت الولايات المتحدة رأسا حربياً يستخدم فى أرض المعركة لحلف الأطلنطى يطلقه رجلان يحملان مدفع بزوكا، بقوة نيران تقل عن عُشْر الكيلو طن. وبالمثل فعل الروس. ولقد اكتشفنا ذلك عندما زعم ألكسندر ليبيد مستشار الأمن القومى الروسى السابق أن مائة سلاح نووى صغير الحجم، مما يعرف باسم «قنبلة حقيبة الملابس»، مفقودة من معدات القوات الخاصة الروسية. ولهذا صرح لى ذات مرة چيوف بايهر، رئيس شبكة التصميمات فى شركة صن مايكروسيستمز، بقوله: «إن أكثر ما يشعرنى بالقلق ـ وهو شىء لا مبالغة فيه ـ أن هذه البنية الأساسية بأسرها ضعيفة أشد الضعف، ليس فقط من جانب قطاّع طريق الكمبيوتر، وإنما أيضاً من جانب أى شخص يستطيع الدخول على لوحة مفاتيح التليفون. ففى مثل هذا العالم يستطيع أى مهاجم الذهاب إلى جبهة التليفونات، ثم يتوجه إلى بيته لتناول شطيرة، ثم يعود للهجوم مرة أخرى».

عندما تجمع ما بين الرجال الغاضبين الذين تفرزهم الأمركة والعولمة وبين الطريقة التى تُكسب بها العولمة الأفراد قوةً عظمى، يصبح لديك ما أرى أنه تهديد حقيقى مباشر للأمن القومى للولايات المتحدة اليوم: الرجل الغاضب الذى اكتسب قوة عظمى.

نعم، هو كذلك، إنها ليست قوة عظمى تلك التى تهدد أمريكا فى نهاية القرن العشرين. إن الخطر الأعظم الذى تواجهه اليوم الولايات المتحدة يأتى من الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى، ويكرهون أمريكا اليوم أكثر من أى وقت مضى بسبب العولمة، ويستطيعون فعل شيء ما حيالها اعتماداً على أنفسهم، أكثر من أى وقت مضى، وذلك أيضاً بفضل العولمة.

فى نظام الحرب الباردة، كان الرجل الذى اكتسب قوة عظمى ـ سواء كان هتلر أو ستالين ـ يحتاج إلى السيطرة على دولة حتى يتسنى له إشاعة الدمار فى العالم. ولكن الرجل الغاضب، أو المرأة الغاضبة، الذى اكتسب قوة عظمى اليوم، يستطيع استخدام القوى التى تعتبر جزءاً لا يتجزأ من العولمة للهجوم حتى على قوة عظمى. لقد كان يقال عن الإمبراطورية الرومانية واسعة النطاق إن كل الطرق تؤدى إلى روما ـ الشمال والجنوب والشرق والغرب. وعن طريق هذا النظام من الطرق استطاع قيصر أن يبسط سلطانه فى كل اتجاه. لقد كانت تلك طرقاً عظيمة. غير أنه يوجد شيء محير إزاء الطرق. إنها تسير فى الاتجاهين، وإنه عندما قررت قبائل الوندال الجرمانية والقوط الغربيون الهجوم على روما أتوا عبر هذه الطرق مباشرة. وهكذا قد يكون الحال بالنسبة للعولمة.

ويأتى الرجال الغاضبون الذين اكتسبوا قوة عظمى فى أشكال مختلفة. وهم يتفاوتون ما بين الغاضبين جداً ولكنهم أقل عنفاً والغاضبين جداً مع عنف خفيف والغاضبين جداً مع العنف الشديد. وأفضل مثال على الغاضبين الأقل عنفاً هم قراصنة الكمبيوتر الذين هاجموا صحيفتى، ***نيويورك تايمز***، أحد أعمدة المؤسسة الأمريكية. ففى 13 سبتمبر 1998، اقتحم هؤلاء القراصنة موقع الصحيفة على الشبكة، وهى المرة الأولى التى يقتحم فيها قراصنة موقعاً لصحيفة كبرى على الشبكة. وقد حكى لى القصة مارتن نيسينهولتس رئيس شركة نيويورك تايمز إلكترونيك ميديا، قال: كنا قد

openkanal.com

نشرنا من فورنا تقرير كينيث ستار بشأن كلينتون يوم الجمعة وكان ذلك يوماً عظيماً بالنسبة لموقعنا على الشبكة. فقد استطعنا الحصول على النسخة الكاملة لتقرير ستار ووضعناه على الشبكة، فليس عليك سوى الضغط على لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر حتى تحصل على ما تريده من التقرير، وبالفعل حطمنا كل أنواع الأرقام القياسية لاستخدام الموقع. كنت أشعر بارتياح كبير بما حققناه إلى درجة أننى قبلت دعوة للذهاب إلى فيلادلفيا للتحدث أمام منتدى وارتون الدولى. وهكذا توجهت مساء السبت إلى فيلادلفيا. وفى الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الأحد، تلقيت اتصالاً هاتفياً من محرر موقعنا على الشبكة بأننا تعرضنا لعملية قرصنة. وكان ذلك قد حدث من قبل عندما حاولت إحدى الجماعات إغراق أجهزة السيرفر الخاصة بنا بالطلبات. ولكن هذا كان شيئاً مختلفاً. لقد استولوا فى الواقع على موقعنا وكانوا ينشرون الرسالة الخاصة بهم على صفحة الشئون الداخلية تحت شعار HFG 'اصطياد البنات Hacking for Girlies ' ووضعوا صورة لإمرأة عارية فوق جسم هذا الشعار واستعدنا الموقع بعد ذلك ونشرنا صحيفتنا فوق مادتهم، ثم عادوا هم واستولوا على الموقع ونشروا فوقنا مرة أخرى. ولذلك عدنا واستعدنا الموقع مرة أخرى، ولكنهم عادوا ليستولوا عليه من جديد. وظلت المعركة دائرة فوق صفحة الشئون الداخلية فى موقعنا على الشبكة طوال ساعتين! لقد تمكنوا من اقتحام نظامنا واستولوا على أجهزة السيرفر الخاصة بنا ـ وهو مكان تخزين صفحات صحيفتنا على الشبكة ـ ونجحوا فى الدخول على موقعنا على الشبكة. وبعد أن دخلوا إليه أصبحت لديهم حرية الوصول التى لدينا لإدارة موقع صحيفة ***نيويورك تايمز*** على الشبكة. وأخذنا نتساءل. هل يجب علينا أن نلغى الموقع، ولكننى قلت لا. ولكن فى النهاية أصبح واضحاً أنه يجب علينا اتخاذ هذه الخطوة. وهكذا، ألغينا الموقع فى الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، وأغلقنا كل المداخل [نقاط الدخول البعيدة عن الموقع]. وقد اعتمدت الطريقة التى

obeikandi.com

دخلوا بها على استغلال جرثومة فى نظام التشغيل يونيكس Unix ، فقمنا بانتزاع أجهزة السيرڤر التى استولوا عليها وأعدنا بناء الموقع بأجهزة سيرڤر جديدة، غير متصلة بأى مداخل بعيدة».

كان أكثر ما أثار اهتمامى هو الرسائل التى وضعها القراصنة فوق موقع صحيفة **نيويورك تايمز**. كانت الرسالة الافتتاحية تقرأ على النحو التالى «نحن نمتلك جسدها». وكانت أجزاء من رسائلهم مكتوبة بالشفرة، نوع ما من لغة شجرة زيتونهم الخاصة على درجة كبيرة من التقدم التكنولوجى. فقد كانوا يستخدمون الأرقام فى أماكن الحروف اللينة. وكانت رسالتهم الأخيرة تقول «تأكدوا من أننا سنعود إليكم فى وقت قريب». وكان من الواضح أن القراصنة يستمتعون، مثل چيسى چيمس، بفكرة أنهم أكثر ذكاء من هيكل القوة العالمى، الذى تمثله صحيفة ***نيويورك تايمز*** وموقعها على الشبكة. كانت رسالتهم تقول إنكم قد تكونون أغنياء ولكنكم لا تستطيعون منافسة العقول السرية للإنترنت، حتى إذا كانت قوتها أقل منكم كثيراً. كانوا يقولون فيما يبدو إن عقولهم هى التى تحقق العدل. وكان من بين الرسائل التى نشرها القراصنة، رسالة تقول. «ليس معنى أننا نطبع بالحروف الكابيتال ولا نستخدم لغة الصفوة أننا مجرد أطفال، أو لا نستطيع امتلاككم. إن كل من يصفنا بأننا صبية ولم نشب عن الطوق بعد يبخسنا حقنا. والأسوأ، ما هو رأيكم فى أمنكم؟ إن هؤلاء الصبية، الذين لم يشبوا عن الطوق بعد، يستطيعون تجاوز حوائطكم الدفاعية التى تكلفت 25 ألف دولار، وتجاوز نظام الأمن الذى وضعه الإداريون بعد خبرة عشرات السنين أو الحاصلون على أعلى الدرجات العلمية من كلياتكم. نياه نياه».

كان الطلب الوحيد للقراصنة هو الإفراج عن كيڤين دى. ميتنيك قرصان الكمبيوتر سيء السمعة الموجود فى السجن منذ اعتقال مكتب التحقيقات الفيدرالى له فى فبراير 1995. وقد اتهم ميتنيك، الذى كان يعد فى وقت من الأوقات أشد القراصنة

المطلوبين للقبض عليهم فى العالم، بسلسلة من الجرائم كان من بينها سرقة آلاف من ملفات البيانات وأرقام 20 ألف بطاقة ائتمانية على الأقل من نظم الكمبيوتر فى أنحاء البلاد. كان ميتنيك يعمل عن طريق مودم كمبيوتر متصل بتليفونه الخلوى، وقد اعتقل بعد اختراقه للكمبيوتر المنزلى لخبير أمن الكمبيوتر البارز تسوتومى شيمومورا، الباحث فى مركز سان دييجو سوبركمبيوتر. وقد ساعد شيمومورا حشداً من الفنيين فى شركة التليفونات والمحققين الفيدراليين على استخدام أجهزة الإسكانر للترددات الخلوية فى مطاردة ميتنيك وإلقاء القبض عليه.

ويعتبر قراصنة الكمبيوتر أساساً من الأصوليين بالإنترنت. ولهم عاداتهم القبلية، وأبطالهم الشعبيون، ولغتهم الخاصة، ونظرياتهم الخاصة فى التآمر، ومصدرهم الخاص بالحقيقة. ولكن ليس لديهم أيديولوجية سياسية متماسكة بمعنى وجود نظام حقيقى بديل. إنهم مجموعة حقيقية على شاكلة هاريو. لديهم موقف نعم، ولكن ليس لديهم أيديولوجية. إنهم فقط لا يريدون سوى إسقاط هيكل القوة الموجود حالياً. إنهم يريدون إثبات أن النظام لا يتحكم فيهم، بل إنهم هم الذين يتحكمون فى النظام.

غير أنك عندما تصعد درجات السلم تجد أولئك الغاضبين بصورة أكبر قليلاً وأولئك الذين يزداد عنفهم قليلاً، مثل الانفصاليين التاميل الذين اكتسبوا قوة عظمى وهاجموا السفارة السرى لانكية فى واشنطن فى سبتمبر عام 1998. قالت صحيفة *واشنطن تايمز* فى سردها للموضوع: «عندما حصلت سفارة سرى لانكا لها على عنوان للبريد الإلكترونى، وجد فيه رجال حرب عصابات منظمة نمور التاميل تطبيقاً جديداً لأساليب الإرهاب. وبدأوا على الفور فى إغراق السفارة بتهديدات بوجود قنبلة وغير ذلك كثير من رسائل البريد الإلكترونى التافهة ـ إلى درجة أنه تعذر على الدبلوماسيين استخدام هذا العنوان الإلكترونى فى إرسال الرسائل المشروعة. ووصف أحد الدبلوماسيين ذلك بأنه 'إرهاب البريد الإلكترونى' . وجاء فى الموضوع أن السفارة

السرى لانكية اضطرت أخيراً فى العام الماضى إلى اللجوء إلى أحد خبراء الكمبيوتر لتطوير برمجيات جديدة لتنقية البريد الإلكترونى من منظمة تحرير نمور إيلام تاميل. وقد ورد ذكر التكتيك الذى اتبعه النمور باعتباره تهديداً جديداً فى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن الإرهاب الدولى. نص هذا التقرير على أن جماعة تطلق على نفسها اسم نمور الإنترنت السودكانت قد وجهت ضربتها من قبل فى أغسطس1997 باستخدام 'أسلحة' «البريد الإلكترونى» التى أدت إلى تعطيل نظم البريد الإلكترونى. وقال تقرير وزارة الخارجية: «لقد زعمت هذه الجماعة فى مراسلاتها على الإنترنت أنها قسم للصفوة فى منظمة تحرير نمور إيلام تاميل، متخصص فى 'عمليات تفجير انتحارية بواسطة البريد الإلكترونى'. وقد استخدمت الجماعة ما أسمته «صواريخ بريد إلكترونى ـ FTB مضادة للسيرفر» لزيادة الأحمال على عنوان بريد إلكترونى مستهدف ويحدث أعطال من حيث حجم البريد المرسل تجبر المتلقى على إلغاء موقع بريده الإلكترونى كلية.

وأخيراً هناك الرجال الغاضبون حقاً ويتسمون بالعنف حقاً ممن اكتسبوا قوة عظمى ولا يستخدمون البريد الإلكترونى. هؤلاء على شاكلة هاريو ولكنهم يمتلكون مدافع حقيقية. ويدركون أن هناك نظاماً حاكماً للعالم وهم ليسوا جزءاً منه ولن يكونوا قط. وتعتبر الولايات المتحدة، وشركة آى بى إم ، وصحيفة *نيويورك تايمز*، وأيضاً وول ستريت، والاقتصاد العالمى جميعاً، من وجهة نظرهم جزءاً من صرح واحد للقوة يجب القضاء عليه. ومن بين هؤلاء الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى طائفة أوم شينريكيو (الحقيقة السامية) Aum Shinrikio فى اليابان، وجماعة أسامة بن لادن فى أفغانستان، وجماعة أونابومبر Unabomber ورمزى يوسف فى نيويورك. كانت طائفة أوم شينريكيو تبشر بتعاليم مجنونة هى خليط من الهندوكية والبوذية ونظريات تآمرية مختلفة يشترك فيها العالم أجمع تضم أمريكا، واليهود، والماسونيين الأحرار

والرأسماليين العالميين. وقد قتلت هذه الطائفة اليابانية اثنى عشر شخصاً وأصابت عدة آلاف آخرين فى مارس 1995 عندما أطلقت غاز الأعصاب، السارين، فى مترو الأنفاق بطوكيو. غير أن طائفة أوم شينريكيو، حسبما ذكرت صحيفة *الإيكونوميست*، كانت قد جمعت ما يقرب من مليار دولار من الأرصدة وقامت فعلاً بشراء طائرة هليكوبتر روسية متطورة الصنع مزودة بمعدات لرش الكيماويات المميتة. وأيضاً أسامة بن لادن، ذلك المليونير السعودى الذى موّل عملية تفجير السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا وقتل فيها أكثر من 200 شخص، وهو يجرى يومياً اتصالات حول العالم باستخدام تليفونات الأقمار الصناعية من خطه الخاص المتصل بالإنترنت المسمى جهاد أون لاين (JOL). وذكرت صحيفة *نيويورك تايمز* أن مكتب التحقيقات الفيدرالى فرغ البيانات الموجودة فى جهاز الكمبيوتر الشخصى الذى استحوذ عليه من أحد أتباع ابن لادن النشطين فى كينيا، وهو هارون فاضل، ووجد بداخله رسالة بالبريد الإلكترونى حكى فيها بالتفصيل كيف أنه ظل يتابع الأحداث العالمية على شبكة سى إن إن الإخبارية التليفزيونية، واستخدم الإنترنت فى الاتصال بالأعضاء الآخرين فى شبكة ابن لادن السرية وكان يصف وظيفته بأنها «مسئول الإعلام الصحفى فى خلية شرق أفريقيا».

أما رمزى يوسف فقد كان العقل المدبر وراء عملية تفجير مركز التجارة العالمى بنيويورك فى 26 فبراير 1993، التى أدت إلى مصرع ستة أشخاص وإصابة أكثر من ألف آخرين. جاء رمزى من جيل من الشباب الغاضبين فى العالم الثالث ممن كانوا يتوقون إلى الحصول على فرصة ليقوموا بما لم يستطع آباؤهم القيام به. وذلك بأن يصبّوا جام غضبهم على الغرب، انتقاماً لكل الاضطرابات التى أحاقها بمجتمعاتهم، ولكن أن يفعلوا ذلك باستخدام التكنولوجيا الغربية مع رفض مجموعة القيم الغربية التى كانت وراء هذه التكنولوجيا. إنهم يحبون فكرة أنهم قادرون على انتزاع طبقة المعرفة

التكنولوجية لدى الغرب وإلصاقها على بطاقة الفيزا، ومع ذلك يستطيعون أن يعيشوا بأسلوب حياة الأصوليين مع إغلاق النوافذ وإسدال النقاب. وبرغم أن الأصوليين فى الإنترنت مستعدون فقط لاستخدام الماوس أو جرثومة يونيكس Unix للتعبير عن وجهة نظرهم، كان رمزى يوسف وجماعته على استعداد لاستخدام الديناميت وإحدى الشاحنات التى استأجرها من شركة رايدر لتأجير الشاحنات. ولكن الهدف كان واحداً فى الأساس - وهو البصق فى وجه الأمركة والعولمة ووطأها بالأقدام، باستخدام النظام ضد نفسه.

ورمزى يوسف هو فى الحقيقة نموذج للرجل الغاضب الذى اكتسب قوة عظمى. تأمل فيه لحظة. ماذا كان برنامجه؟ ما هى أيديولوچيته؟ فهو قبل كل شيء حاول نسف أعلى مبنيين فى أمريكا. هل كان يريد دولة إسلامية فى بروكلين؟ هل كان يريد دولة فلسطينية فى نيو جيرسى؟ كلا. كل ما كان يريده هو نسف اثنين من أعلى المبانى فى أمريكا. فقد اعترف أمام المحكمة المحلية الفيدرالية فى مانهاتن بأن هدفه هو إطلاق انفجار يؤدى إلى انهيار أحد برجى مركز التجارة العالمى على البرج الآخر لكى يقتل 250 ألف مدنى. كانت رسالة رمزى يوسف أنه ليس لديه رسالة، سوى تمزيق الرسالة القادمة من القوة الوحيدة، أمريكا، إلى مجتمعه. وأشارت صحيفة **الإيكونوميست** ذات مرة إلى أنه «كان من المعتاد القول عن الإرهابيين 'بأنهم يريدون أكثر عدد من المشاهدين لعملياتهم وليس أكثر عدد من القتلى'». ولكن ليس هذا هو حال الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى. إنهم يريدون أكثر عدد من القتلى. إنهم لا يحاولون تغيير العالم. فهم يعلمون أنهم لا يستطيعون ذلك، ولذلك فإنهم يريدون فقط تدمير كل ما يسعهم تدميره.

لقد اعتمد جزء كبير من قضية التآمر التى رفعتها الحكومة الأمريكية ضد رمزى يوسف (كان يعتزم نسف اثنتى عشرة شركة طيران أمريكية فى آسيا فى يناير 1995، إلى جانب محاولته نسف مركز التجارة العالمى فى عام 1993) على ملفات عثر عليها فى جهازه المكتبى للكمبيوتر من طراز توشيبا الذى ذكرت الشرطة الفلبينية أن يوسف خلّفه وراءه عند هروبه من شقته فى مانيلا فى يناير 1995، قبل فترة وجيزة من اعتقاله. وعندما حصل المحققون على جهاز الكمبيوتر المكتبى الذى كان لدى يوسف واقتحموا ملفاته، وجدوا أن هذا الكمبيوتر يحتوى على جداول مواعيد الرحلات الجوية، ومواعيد التفجيرات المقترحة وعينات من وثائق الهوية التى تحمل صوراً لبعض المتآمرين معه. كم أحب ذلك ـ لقد احتفظ رمزى يوسف بكل مؤامراته على قرص تشغيل جهاز الكمبيوتر التوشيبا الخاص به!

ومما يثير الاهتمام بشأن رمزى يوسف وغيره من الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى القادمين من العالم العربى الإسلامى اليوم، حسبما يشير ستيفين بى كوهين الخبير فى شئون الشرق الأوسط، هو أنهم «اعتادوا على الاعتقاد بأن عليهم الإطاحة بحكوماتهم، والسيطرة على مقدرات دولهم، قبل استيلائهم على أمريكا. وهم الآن يقومون بذلك مباشرة معتمدين على أنفسهم كأفراد». ولم تيسر لهم العولمة فقط الهجوم على الولايات المتحدة كأفراد، ولم تعطهم فقط الدافع للقيام بذلك، ولكنها أعطتهم المنطق لذلك. هذا المنطق هو أن دولهم لم تعد تمثل الهيكل الحقيقى للقوة. فقد أصبح هيكل القوة المناسب لهم عالمياً. إنه فى يد القوة العظمى الأمريكية وأسواق السوبر ماركت، فتلك هى التى تأمر الحكومات الأخرى بما يجب عليهم القيام به. ولذلك، فإذا كنت تريد هدم الهيكل الحقيقى للقوة، فعليك ملاحقة القوة العظمى وأسواق السوبر ماركت ولا تشغل بالك بحكومة باكستان أو مصر.

فليس ما يشغل بال هؤلاء الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى هو أن الولايات المتحدة متفوقة تكنولوچيا فحسب، بل إنها تزعم أن قيمها متفوقة أيضاً، فى حين، يرى هؤلاء الإرهابيون أن هذه القيم الأمريكية ليست سوى عبادة بلا روح لتكنولوچيا استهلاكية تفتقر إلى الذكاء. ولقد دار الحوار التالى فى نهاية محاكمة رمزى يوسف، بينه وبين قاضى المحكمة، كيڤن توماس داڤى. إنه حوار بين رجل غاضب اكتسب قوة عظمى والقوة العظمى.

رمزى يوسف: «إنكم لا تتوقفون عن الحديث عن العقاب الجماعى وقتل الأبرياء .... أنتم الذين بدأتم بقتل الأبرياء، وأنتم الذين بدأتم بتقديم هذا النوع من الإرهاب فى تاريخ البشرية، عندما أسقطتم قنبلة نووية قتلت عشرات الآلاف من النساء والأطفال فى اليابان، وعندما قتلتم أكثر من 100 ألف نسمة، معظمهم من المدنيين حين قصفتم مدينة طوكيو. لقد قتلتموهم حرقاً. قتلتم المدنيين فى فيتنام بالمواد الكيماوية وأيضاً بما تطلقون عليه العامل البرتقالى. قتلتم المدنيين والأبرياء، وليس العسكريين فى كل حرب اشتركتم فيها. لقد خضتم من الحروب أكثر من أى بلد آخر فى هذا القرن، وعلاوة على ذلك لديكم الشجاعة للحديث عن قتل الأبرياء. والآن اخترعتم طرقاً جديدة لقتل أناس أبرياء. عندكم ما تطلقون عليه الحصار الاقتصادى الذى لا يقتل سوى الأطفال والمسنين، والذى تفرضونه، إلى جانب العراق، على كوبا وغيرها من البلاد منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. تقول الحكومة فى تلخيصها لعريضة الاتهام الموجهة لى وفى كلمة الادعاء الافتتاحية إننى 'إرهابى'، نعم، أنا إرهابى وأنا فخور بذلك. وأنا أساند الإرهاب طالما ظل موجهاً ضد حكومة الولايات المتحدة وضد إسرائيل، لأنكم أنتم أيضاً لستم سوى إرهابيين، أنتم الذين اخترعتم الإرهاب، وأنتم الذين تستخدمونه كل يوم. إنكم جزارون وكاذبون ومنافقون».

حينئذ رد القاضى كيفن دافى على يوسف ـ بما يعنى فى الواقع أن عليه أن يأخذ ثورة غضبه العدمية تلك ويرحل: «رمزى يوسف، أنت تزعم إنك مناضل إسلامى. ولكن من بين كل أولئك الذين قتلتهم أو أصابتهم قنبلة مركز التجارة العالمى بصورة أو بأخرى، لا يمكنك أن تحدد لى بالاسم من يتخذ منهم موقفاً معارضاً لك أو لقضيتك. ذلك شىء لا يعنيك، طالما قد تركت وراءك جثث القتلى والجرحى. رمزى يوسف، إنك إنسان لا تصلح أن تكون مسلماً. فإلهك الموت. . وليس إلهك الله تعالى .... إنك لم تكن تسعى إلى الهداية. كل ما كنت تبغيه هو أن تتسبب فى الموت. إلهك ليس الله تعالى. إنك تعبد الموت والخراب. إن ما تفعله، لا تفعله لوجه الله تعالى، إنك تفعله فقط من أجل إرضاء شعورك المختل بذاتك. لقد كنت تريد من الآخرين أن يؤمنوا بأنك جندى، ولكن هجماتك على المدنيين، التى تقف مداناً من أجلها هنا، ليست سوى هجمات غادرة لم تهدف إلا إلى قتل وتشويه أناس أبرياء تماماً .... لقد جئت، يا رمزى يوسف، إلى هذا البلد مدعياً إنك من الإسلاميين الأصوليين، ولكنك لم تهتم إلا قليلاً بالإسلام أو عقيدة المسلمين أو أنك لم تهتم بهما إطلاقاً. بل الأحرى، إنك لا تعبد الله تعالى، ولكنك تعبد الشر الذى أصبحت أنت تمثله. ويحق لى القول، بأنك باعتبارك رسول الشر، قد أديت رسالتك على أكمل وجه».

بيد أن الجزء المفضل لدىّ من قضية رمزى يوسف، هو أن أحد المتآمرين معه، واسمه محمد سلامة، عاد مرة أخرى ـ بعد انفجار مركز التجارة العالمى ـ إلى وكالة رايدر لتأجير الشاحنات التى استأجر منها الشاحنة المغلقة التى استخدمت فى التفجير. فقد أودع سلامة تأميناً قدره 400 دولار عند استئجار الشاحنة وأراد استرداده رغم أنه نسف الشاحنة المغلقة. [قال للموجودين فى وكالة تأجير السيارات إن الشاحنة قد سرقت] كان العالم بالنسبة لسلامة عالمين مختلفين. فى الصباح تنسف مركز التجارة

العالمى لقتل الأمريكيين لكى تنتصر للخير على الشر، وفى المساء تسترد نقودك على أساس المبادئ القانونية الأمريكية وقانون الاستئجار الأمريكى. فلا شىء أفضل من ذلك يجتذب قدرة الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى على استغلال تكنولوجيا العالم الحديث بدون تفهم لأى قيمة من قيمه. وعندما سأل المحققون رمزى يوسف، كيف يتأتى لسلامة أن يعود لاسترداد تأمين السيارة ـ وهو التصرف الذى ساعد الشرطة على تعقب المسئولين عن الانفجار ـ رد فى كلمة واحدة بقوله: «غبى».

هل يوجد ثمة دفاع عن هؤلاء الناس؟ قد يرتاح المرء للاعتقاد بأن المجتمعات تستطيع، عن طريق البرامج الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية الصحيحة، القضاء على الدافع والشعور بالاستياء والغضب لهؤلاء الذين يشعرون أن الأمركة والعولمة سحقتهم فى طريقها. ولكننا لا نستطيع. فالناس على شاكلة رمزى يوسف لديهم قدر كبير من الحافز أو من الحرمان. والإحساس بما يشعرون به من آلام لن يرجعهم عما هم فيه، ولن ينجح أيضاً معهم العمل الاجتماعى. فسوف تظل هناك دائماً المجموعة الأساسية العنيدة، من أمثال رمزى يوسف. والدفاع الوحيد لمواجهتهم هو عزل هذه المجموعة الأساسية العنيدة عن المجتمع الأكبر المحيط بهم. والطريقة الوحيدة لتنفيذ ذلك هو التأكد من أن جزءاً كبيراً من ذلك المجتمع أصبحت له مصالح مع نظام العولمة. فكيف يتسنى للمرء أن يفعل ذلك؟ ذلك هو أحد الخيوط التى يتناولها الفصل الأخير من هذا الكتاب.

بيد أن المرء يجب أن لا يتعلق بالأوهام. فالرجال الغاضبون الذين اكتسبوا قوة عظمى موجودون هناك، وهم يمثلون اليوم أقرب التهديدات للولايات المتحدة ولاستقرار هذا النظام الجديد. ولا يرجع الأمر إلى أن رمزى يوسف يمكن أن يصبح فى يوم ما قوة عظمى. لا، لا، لا. بل يرجع إلى أنه فى العالم اليوم يوجد كثيرون من الناس ممن يمكن أن يكونوا رمزى يوسف.